المحاضرة الثانية -٠٢-
أوضاع الوطن العربي قبيل الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م

كان الوطن العربي قبيل الحملة الفرنسية على مصر في يوليو ١٧٩٨م يموج بالفتن والثورات والحركات الانفصالية، وينذر بسيطرة أجنبية على سواحله وأراضيها.

١- منطقة الخليج العربي:

منذ القرن ١٨م رسمت إنجلترا لنفسها سياسة عامة وهدفا هو السيطرة على مداخل البحار العربية حتى تؤمن مصالحها وتجارتها في الشرق.

وفي أواخر القرن ١٨م ظهرت عوامل جديدة دفعت إنجلترا إلى المضي في تحقيق سياستها وأهم هذه العوامل الحملة الفرنسية على مصر والشام "١٧٩٨م"[١]. ولقد لجأت إنجلترا إلى وسيلتين تنفذ بهما سياستها دون أن تحتل هذه البلاد التابعة للخلافة العثمانية، بقوات عسكرية كبيرة وهما:

أ- عقد المعاهدات مع أمراء وشيوخ العرب، تلك المعاهدات التي تربطهم بقيود السيطرة البريطانية.

ب- إظهار قوة الأسطول البريطاني في الخليج العربي من وقت لآخر للإشراف على تنفيذ هذه المعاهدات.

ومما يجب الإشارة إليه في هذا المضمار أنه بعد أن عادت الجزيرة العربية إلى نفوذ العثمانيين، عمل العثمانيون على تدعيم نفوذهم وسلطانهم بها ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام النفوذ الإنجليزي[٢].

كان الوطن العربي باستثناء المغرب الأقصى تابعا للدولة العثمانية التي حرّرته من الشيعة والبرتغاليين والإسبان باسم الدفاع عن الدين وظلوا يعتمدون على الدين

---

[١]- سليمان بن محمد الغنّام، قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية "١٨١١-١٨٤٠م" في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا، الكتاب العربي السعودي، تهامة، السعودية، ط١، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، ص ١٢.

[٢]- للإطلاع أكثر أنظر عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية -دولة إسلامية مفترى عليها-، ج٣، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ٢٠٠٤م، ص ٢٠٢.

في حكم البلاد العربية. ومن ناحية أخرى رأى العرب أن الواجب الديني يفرض عليهم الولاء للخليفة العثماني، فالخروج عليه يضعف الدين والدولة، ويُثير أطماع الدول الأوربية المسيحية في بلاد العرب والمسلمين.

٢- في الحجاز:

أبقى العثمانيون على النظام الذي كان سائدا فيه، فبقى الحكم في يد شريف مكة المكرمة الذي كان يختاره الأشراف، كما بقيت الصدقات والمرتبات التي كانت ترسل من مصر إلى الحجاز[٣] وكانت أهم واجبات شريف مكة أن يعمل على سلامة الحجاج وحمايتهم من القبائل البدوية التي كانت تعتدي على الحجاج وخاصة إذا تأخرت رواتبهم، وأن يعمل على إرضاء بقية الأشراف الذين اختاروه، حتى لا يخلعوه بالقوة ولذلك كون لنفسه حرسًا يستعين به على خصومه واستمرت الأحوال على هذا الوضع بالحجاز حتى قامت الدعوة الوهابية التي احتضنها أمراء آل سعود في نجد الذين استطاعوا ضمّ الحرمين الشريفين عام ١٨٠٢م، وبذالك دخل الحجاز في عهد جديد[٤].

وعلى العموم يمكننا أن نقول أن شرفاء مكة المكرمة كان لهم النفوذ الكبير في الحجاز ولم يكن الباشا العثماني يقيم في مكة المكرمة بل في جدة. وقد انتقل مركزه إلى المدينة المنورة في منتصف القرن ١٩م عندما بدأت الدولة تسير في طريق الحكم المركزي.

٣- في مصر:

انتهز علي بك الكبير وهو أحد أمراء المماليك ضعف الدولة العثمانية وحربها مع روسيا وأعلن استقلاله بمصر عام ١٧٦٩م وطرد الباشا العثماني واتصل بضاهر العمر زعيم فلسطين وعمل على ضم سورية إلى مصر وتخليصها من الحكم

---

[٣]- عبد الكريم عز الدين، خواطر عثمانية، دار وحي القلم، دمشق، سوريا، بيروت، لبنان، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، ص ص ٩٢، ٩٣.

[٤]- للإطلاع أكثر انظر عبد الكريم محمود، غرابية تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م، ص٥٨، وص ٢١٤، ٢١٥.

العثماني[٥] كما اتصل بروسيا العدو التقليدي للدولة العثمانية[٦] ولكن هذه الأخيرة استطاعت أن تتخلص منه بالمؤامرات وتأليب أتباعه عليه سنة ١٧٧٣م وقتله.

وقد ظل المماليك هم حكام مصر الفعليين وقد استمر حكامهم في الدسائس والمؤامرات للوصول إلى الحكم حتى أصبحت فوضى في عهدهم. وقد استولوا على معظم الأراضي ومع ذلك أهملوا بضائع التجار الأجانب المارين بمصر أو المقيمين فيها، حتى ضجّ هؤلاء بالشكوى واستصرخوا حكوماتهم للمحافظة على حقوقهم[٧].

٤- في اليمن:

كان الأئمة الزيديون في صراع مستمر مع العثمانيين طيلة الحكم العثماني تقريبًا. وعلى العموم كان للأئمة النفوذ الكبير في اليمن أوقات السلم، ولم يكن باشوات الدولة العثمانية سوى ممثلين للخليفة العثماني ولا سلطة لهم على القبائل العربية. وعندما توالت ثورات اليمنيين اضطر العثمانيون إلى الجلاء عن اليمن عام ١٦٣٥م[٨] فكان أول بلد عربي يتخلص من الحكم العثماني، ولكن العثمانيين استطاعوا العودة إليه عام ١٨٤٨م[٩].

٥- في الشام:

أبقت الدولة العثمانية على الزعماء الإقطاعيين وأصحاب العصبيات في المناطق الصحراوية وجبل لبنان وفلسطين بعد تعهدهم بالولاء للدولة العثمانية، ولكنهم انتهزوا ضعف هذه الدولة وأكثروا من قواتهم ورفعوا راية العصيان، ومنهم

---

[٥]- للإطلاع أكثر أنظر قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة طارق معصراني، دار التقدم، موسكو، الإتحاد السوفياتي، ١٩٨٩م، ص ص ٦٤-٦٥.

[٦]- للإطلاع أكثر على ذلك أنظر عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية "علي بك الكبير حليف الروس"، دار ابن حزم للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩.

[٧]- أحمد إبراهيم عبد الله وآخرون، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ج١، مطابع دار البعث، دمشق، سوريا، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٥٤.

[٨]- فاروق عثمان، الحكم العثماني في اليمن "١٨٧٦-١٩١٨م"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ١٩٥٦م، ص٣٠.

[٩]- فؤاد عبد الوهاب علي الشامي، علاقة العثمانيين بالإمام يحي في ولاية اليمن "١٩٠٤-١٩٠٨م"، مركز الرائد للدراسات والبحوث، صنعاء، اليمن، ص ٣١.

الشيخ ضاهر العمر الذي قام في فلسطين بالاستقلال عن الدولة العثمانية، مستغلا ضعفها وحروبها الخارجية مع روسيا في تقوية نفوذه ومركزه داخليا وخارجيا، حيث نال التقدير والمكانة لدى السكان من خلال سياسته القائمة، على العدالة الاجتماعية في نشر الأمن والاستقرار، وسياسته الدينية القائمة على التسامح الديني[١٠]. أما على الصعيد الخارجي فقد أقام علاقات حسنة مع روسيا التي شجعته على الوقوف ضد الدولة العثمانية، كما أقام علاقة حسنة مع والي مصر "علي بك الكبير" الذي وقف معه ضد الدولة العثمانية، وساعده بإرسال حملات عسكرية له[١١]، تمكن من خلالها دخول دمشق، وضم عدة مدن لدولته أهمها: يافا، غزّة، عكا وصفد، وبهذا أثارت قوة شخصية ضاهر العمر وتزايد نفوذه مخاوف السلطة العثمانية. ولهذا سعت للقضاء عليه، محرضة الولاة العثمانيين الموجودين في بلاد الشام وإلقاء الأوامر بالقبض عليه وقتله، وبعد عدة محاولات انتهت فترة ضاهر العمر بمقتله[١٢] عام ١٧٧٦م، بعد أن دامت ٢٦ سنة حيث امتدت من سنة ١٧٥٠م إلى سنة ١٧٧٦م. وبعد ذلك شهدت بلاد الشام إشتداد قبضة السلطة العثمانية المركزية عليها.

٦- في العراق:

استطاع الباشوات المماليك أن يفرضوا نفوذهم على العراق خلال القرن ١٨م والثلث الأول من القرن ١٩م. وكان "سليمان باشا الكبير خامسهم" ١١٩٤هـ/١٧٨٠م-٧ ربيع الثاني ١٢١٧م/ ٧ أغسطس ١٨٠٢م. لم يعر اهتماما كبيرا في الإدارة والإصلاح أو الحرب[١٣]، وعجز في تحقيق أبسط مظاهر الحكم وهو استتباب الأمن والاستقرار وإخضاع القبائل المتمردة فحسب بل نراه يدفع قبيلة العبيد الكبيرة بزعامة آل الشاوي والموالية له إلى الثورة عليه. ومما زاد في فشله في التسيير

---

[١٠]- قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة طارق معصراني ودار التقدم، موسكو، الإتحاد السوفياتي، ١٩٨٩م، ص ٥٢.

[١١]- قسطنطين بازيلي، المصدر السابق، ص ٥٤.

[١٢]- للإطلاع أكثر عن ذلك أنظر محمد عزة دروزة، العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي، ج٤، ط٢، منشورات المكتبة والمطبعة العصرية في صيدا، لبنان، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ص٧٩، ٨٠.

[١٣]- عبد الكريم محمود غرايبة، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م، ص ١١٦.

تعرض مدن العراق لهجمات سعودية مدمرة[١٤]. ورغم كل هذه النكسات كان هذا الحاكم كبيرا في نظر الأوربيين لاسيما الإنجليز لأنه سهل أمورهم وحمى مصالحهم برعايته[١٥].

٧- في الجزائر:

كانت خاضعة خضوعا إسميا للخلافة العثمانية ويمارس حكمها الداي الذي كان ينتخب من بين أعضاء الديوان مدى الحياة. وبعدها تؤخذ موافقة السلطان على تسميته دايًا. ولذلك نجد بعض الكتب التاريخية التي تتحدث عن هذه المرحلة وتشير إلى طبيعة الحكم في الجزائر بجمهورية الجزائر نظرًا لانتخاب دايها فقط. كانت للداي سلطة مستقلة في أمور الإيالة، وحرية التصرف بحيث كان له الحق في إعلان الحرب، وعقد الصلح وإبرام الإتفاقيات الاقتصادية وغيرها مع الدول الأجنبية، دون الرجوع إلى السلاطين العثمانيين، غير أن هذا الوضع لم يكن يعني انقطاع كل تعاون أو تعاطف مع الدولة العثمانية، ففي حالة الحرب كانت الجيوش الجزائرية تشترك مع الجيوش العثمانية في حروبها، ونذكر من ذلك مشاركة الأسطول الجزائري الأسطول العثماني في معركة نفارين جنوب اليونان عام ١٨٢٧م[١٦]. وكانت الدول الأجنبية تنظر إلى الجزائر كدولة مستقلة قائمة بذاتها، فتعتمد لديها قناصل ليقيموا علاقات مباشرة مع حكامها.

وأهم ما يستحق الوقوف عنده في هذه المرحلة قبيل حملة نابليون بونابارت على مصر في يوليو ١٧٩٨م، هو تمكن الجيش الجزائري من تصفية الوجود الإسباني نهائيا في كل من وهران والمرسى الكبير وذلك في عام ١٧٩٢م[١٧]. وبعد عدّة محاولات ومصادمات عسكرية ابتدأت منذ عام ١٧٠٨م. تمثل هذه المرحلة من مراحل الحكم العثماني مرحلة احتكار طائفة الرياس "القوى البحرية" للسلطة وفيها

---

[١٤]- نفسه.

[١٥]- نفسه، ص ١١٧.

[١٦]- الحاج أحمد الشريف الزهار -نقيب أشرف الجزائر-، مذكراته، تحقيق أحمد توفيق المدني "الإستنجاد بالجزائر"، ط٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٠م، ص ص ١٤٨، ١٤٩.

[١٧]- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢م، ط١، دار البصائر للتوزيع والنشر، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص ٤٩١.

كذلك استكملت الإدارة العثمانية صورتها الثابتة في الجزائر ودخول الأسطول الجزائري عصره الذهبي، بالرغم من بعض الكوارث الطبيعية التي أصابت الجزائر كزلزال وهران في أكتوبر ١٧٩٠م واستمرت الهزات الأرضية إلى يوم ٢٢ نوفمبر[١٨]، ناهيك عن الحروب البحرية بين الأسطول الجزائري والأساطيل الأوربية والأمريكية[١٩].

٨- في تونس:

قامت فيها الأسرة الحسينية "١٧٠٥-١٩٥٧م" التي أسسها الحسين بن علي بعد أن انتخبهُ العلماء وكبار الجند والأعيان يوم ١٢ يوليو ١٧٠٥م بايًا على تونس[٢٠]. ويعتبر رأس الأسرة الملكية التي عرفت بالأسرة الحسينية نسبة إليه بعد حصوله على مرسوم عثماني يجعل المنصب وراثيًا في عائلته، والتي استمر الحكم فيها إلى غاية ٢٥ يوليو ١٩٥٧م.

قضى هذا الباي على العصبيات المسلحة، وجهز قوة بحرية قوية وأخرج الجزائريين من البلاد وأخمد محاولة الداي محمد الأصفر الانقلابية، وعقد المعاهدات مع الدول الأوربية... غير أن الصراع على السلطة بين أبناء هذه الأسرة بدأ يظهر منذ عهد مؤسسها حيث قتله ابن أخيه "علي باشا"[٢١] الذي امتاز عهده بالاستقرار ومحاولة التحرّر من قيود المعاهدات المبرمة بين أسلافه والدول الأوربية. ولكن محمدًا بن الحسين أراد استعادة السلطة والانتقام لأبيه المقتول، فاستعان بداي الجزائر الذي مكنه من العودة إلى عرش أبيه عام ١٧٥٦م لقاء ضريبة سنوية ظلّ بايات تونس يؤدونها لخزانة الجزائر حتى عام ١٨٠٦م.

ولم يدم عهد الباي محمد سوى ثلاث سنوات توفي بعدها فخلفه على العرش أخوه "علي" الذي أورث العرش ولده حمودة باشا "١٧٨٢-١٨١٤م" الذي يعتبر أبرز وأقوى بايات الأسرة الحسينية[٢٢].

---

[١٨]- نفسه، ص ٤٨٩.

[١٩]- الحاج أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص ٧٣، ١٠٩، ١١٧.

[٢٠]- أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، المجلد١، الجزء٢، تحقيق لجنة من كتاب الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، منشورات زخارف، تونس، ٢٠١٦م، ص ٨٧.

[٢١]- أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ص ١١٧.

[٢٢]- للإطلاع أكثر أنظر أحمد بن أبي الضياف "المصدر السابق"، المجلد الثالث، ص ١١ وما بعدها.

٩- في ليبيا:

على إثر تدهور الأوضاع بها تمكن أحد قادة الجيش أحمد القرمانلي[٢٣] أن يكسب ثقة الجيش من الوصول إلى الحكم بمبايعة الشعب والعلماء له يوم ٢٧ يونيو ١٧١١م، وبموافقة السلطان العثماني بعد تردد وجفاء، ومن أهم الإصلاحات التي قام بها:

- طَهر الجيش من القادة والعناصر الذين ساهموا في اضطراب البلاد.
- قوى الأسطول اللّيبي وحصن المدن الساحلية.
- وحد البلاد ووسع حدودها على حساب جيرانه ونشر الأمن في ربوعها.
- نظم التجارة واهتم بطرق القوافل إلى أواسط إفريقيا...
- نظم أمور ليبيا تنظيما جديدا ومنحها صفة شبه استقلالية.
- اعتمد على أقربائه ومشاورته للعلماء والأعيان، جعله يعمق نفوذه ويقوي مركزه فضمن بذلك لأبنائه من بعده حكم الولاية حكما وراثيًا.
- أصبحت ليبيا في عهده قوية مرهوبة في البحر المتوسط، ولكن خلفاؤه لم يحافظوا على هذا المكسب حيث ساءت أوضاع ليبيا في عهد ابنه محمد باشا الذي عرف بالضعف. وعندما تولى علي باشا السلطة في الفترة الممتدة ما بين ١٧٦٧ و١٧٩٦م قضى على الفتن وأعاد الهدوء للبلاد ولكن عوامل الضغط الاقتصادية وخاصة المجاعات والصراع بين العشائر البدوية والكراغلة والحضر والأعراب وهجومات الأسطول الفرنسي عام ١٧٨٥م هدّدت سلطته.

---

[٢٣]- الأسرة القرمانلية: اسرة تركية الأصل من مدينة قرمان الواقعة جنوب تركيا حاليا، جاء جدها الأكبر مصطفى مع جيش سنان باشا لتحرير ليبيا من فرسان القديس يوحنا عام ١٥٥١م. وكان هذا الجد من جملة الجنود الذين أمر سنان باشا بإبقائهم. فاستقر في منطقة المنشية، ومارس التجارة وتمكن من امتلاك مزارع وتزوج من فتاة طرابلسية الأصل واندمج مع سكان المدينة. للمزيد عن الأسرة وإنجازاتها انظر: إبن غليون التذكار فيمن ملك طرابلس من الأخبار تحقيق الطاهر الراوي، ص ١٩٠. وأنظر كذلك طرابلس الغرب تحت حكم الأسرة القرمانلية، تأليف رودولفو ميكالي ترجمة: طه فوزي، ص ص ١١ و١٢، وأنظر كذلك محمود علي عامر، ومحمد خير فارس تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى-ليبية)، قسم التاريخ، جامعة دمشق، سورية، ص ٢٠٨ وما بعدها.

١٠- في المغرب الأقصى:

بعد فترة العظمة والقوة التي عرفها المغرب في عهد مولاي إسماعيل "١٦٧٢-١٧٢٧م" ومحاولة تصديه لدولة الجزائر عدة مرات، وعدم مهادنته للوجود العثماني بها[٢٤]. عرف المغرب بعد وفاته فترة من أحلك فترات تاريخه الحديث مملوءة بالفتن والاضطرابات طيلة الفترة الممتدة بين ١٧٢٧ و١٧٥٧م حيث انقسم إلى أقاليم واستبد به الحكام واضطرب الأمن وعمّت الفوضى وأفقرت الأرياف وانكمشت المدن ولم يعد لسلاطينه كلمة في حكمه. ويمكن تلخيص مميزات هذه المرحلة في النقاط التالية:

- عدم تماسك الأسرة العلوية وصراع أبنائها على الحكم مما أدى إلى تدخل الجيش وذوى النفوذ في اختيار وعزل الملوك.
- إستبداد جيش عبيد البخاري بالسلطة ومحاولته الاحتفاظ بها عن طريق اختيار الملوك وخلع من لم ينفذ أوامرهم ويخضع لتوجيهاتهم[٢٥] وبذلك تحول هذا الجيش الذي أراده مولاي إسماعيل دعامة لنظامه وشوكة في حلق أعدائه أداة فساد وعامل تفكك لدولته بعد وفاته، فتلاعب بالسلاطين خلعًا وقتلاً[٢٦]. وتشير المصادر التاريخية إلى أن عدد الملوك الذين تعرضوا لذلك بلغ ١٤ ملكًا.
- تمرّد تشكيلات الجيش الأخرى وتدخلها في شؤون الحكم فجيش "لَوْدَايَا" أعلن العصيان بفاس ونهب المدينة واعتقل العديد من الشخصيات. وبالتالي انتفضت الحاميات ولم تعد مهمتها موجهة لإقرار الأمن والمحافظة على

---

[٢٤]- إبراهيم شحاته حسن، أطوار العلاقات المغربية العثمانية، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، ١٩٨١م، ص ص ٤٢٨، ٤٢٩.

[٢٥]- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه امين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١٠، ١٩٨٤م، ص ٦٣٢.

[٢٦]- محمد عزة دروزة، العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي، ج٨، ط٢، منشورات المكتبة والمطبعة العصرية في صيدا، لبنان، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، ص ١٥٣.

الهدوء وإنما كان همها منصبًا للإستبداد والنهب والاستحواذ على خيرات البلاد[٢٧].

- وبعد إثنان وثلاثين سنة انتهت هذه الأزمة بنجاح مولاي محمد بن عبد الله حفيد مولاي إسماعيل في إعادة الاستقرار والهدوء إلى المغرب. ويعتبر عهده مرحلة تجديد الدولة العلوية، وإعادة النظام إلى ربوع المغرب الأقصى "١٧٥٧-١٧٩٠م" انتقلت فيها إلى مرحلة التكوين والعظمة[٢٨] لتعقبها مرحلة الإنزواء والعزلة "١٧٩٠-١٨٧٣م" ولم يستيقظ منها المغرب إلى أن وطأت أقدام نابليون بونابارت أرض مصر.

---

[٢٧]- محمد عزة دروزة، ص ص ١٥٢-١٥٣.

[٢٨]- محمد رشدي الجندي، تاريخ العالم الحديث منذ عصر السعديين حتى عالم القرن ٢٠م، دار الثقافة الدار البيضاء، المغرب، ١٩٦٨م، ص ص ٣٠، ٣١.